من تراب الطريق (٤٦٠)

# مصر التي في خاطري(*)

## (١)

هذه خواطر كتبتها منذ سبع سنوات عن مصر التى فى خاطرى ، ويجب أن تكون حيّة حاضرة فى خواطرنا فى هذه الأيام الصعبة التى اختلط فيها الحابل بالنابل ، وبدا أن قيم الانتماء ليست حاضرة بالقدر الكافى فى صفحات وجداننا لنفى بحق مصر فى أعناقنا . نعم . ما أحوجنا هذه الأيام لأن نعيد تعميق عشقنا وانتمائنا لمصر .. لست أزعم أن حب الوطن قد توارى ، فذلك فى تقديرى محال ، ولكنى أعتقد أن شحنة إحساسنا العام بالانتماء قد تضاءلت وخفتت إن لم تكن قد خبت ـ أو تكاد .. لا أذكر عشق مصر ، والانعطاف إليها وإلى قضاياها ، دون أن يرد إلى خاطرى وفورًا عاشق مصر الكبير أستاذنا الأديب المفكر الفنـان العملاق يحيى حقى ..

عشق يحيى حقى أدبه وفنه ، مثلما عشق مصر عشقًا هائلًا تطالع أصداءه فى كل ماكتب . كتابات يحيى حقى تفيض كلها بفكر ونبض وأحاسيس ومشاعر واختلاجات ومعاناة وآلام وأفراح وأتراح فنان متيم حتى النخاع فى عشق مصر .. مصر القديمة بعبقها وأريجها .. رائحة ترابها وحقولها .. شوارعها وحواريها وأزقتها .. أسوارها ومكتباتها .. مآذنها ومساجدها وكنائسها .. قيسارياتها وبيمارستاناتها .. مقاهيها ومتاجرها .. آثـارها الفرعونية ، والرومانية ، والقبطية ، والعربية .. هذا العشق الجارف لمصر القديمة ، مقرون لدى يحيى حقى بغوص واع متفتح ومبصر ومتفطن لسر

(*) المال ٢١/٦/٢٠١٠ .

عبقرية مصر المكان ومصر الشعب .. لا يمضى فى عشقه دون أن يستخلص من عبق الماضى وصفحاته رؤية عميقة مصفاة ، يطل منها وبها على «مصر الحديثة» التى يتمناها ويبشر لها .. لا تتوارى عنده الأصالة وهو يلبى ويلاحق المعاصرة .. نموذج فريد لعاشق محب .. وفنان مدقق يرصف الكلمات والأفكار رصف الجواهر .. تتوالد أفكاره فى ولادات قيصرية ، ولكنها بدر التمام حين تخرج مجسدة إلى الوجود فى عبارات مرصوفة بعناية كحبات العقد . محال أن تحل حبة محل أخرى .

مصر فى كتابات يحيى حقى ، ليست محض رصد ولا بيان ، وإنما أنت تحس من خلالها بعبق التاريخ ورائحة الحاضر .. مع يحيى حقى تمضى مبهورًا مابين السيدة زينب ، والحسين ، وزين العابدين ، والسيدة نفيسة ، وبين الصورين ، والسيدة عائشة ، والفوالة ، والأزهر ، وصحون الجوامع ، وأقبية المساجد والحصون ، وأبراج الكنائس .. لن تملك وأنت تجرى خلفه إلاّ أن تنطبع صفحة وعيك بهذا العشق وبهذه النظرات الفاهمة الواعية المتفطنة الباحثة فى سلبيات الحاضر ، الساعية إلى كشفها وتشخيص أسبابها ودق الأجراس للالتفات إليها !

انظر معى إلى «كاميرا» يحيى حقى فى مقالاته المجموعة فى كتابه: «حقيبة فى يد مسافر ورحلات أخرى .. «هذا رجل جاب ويجوب العالم ، لا لمجرد تزجية الفراغ والتسلية ، وإنما لرؤية ما هناك رؤية متفطنة ، والتأمل أيضًا فى إيجابياته ومسالكه ومحركاته ، يقول لنفسه ويقول لنا إن كان فى قلب المسافر ذرة من حب الوطن والأنفة له والأرق له ، فلن يستطيع أن يكبح جماح تساؤلاته .. أى شىء هى هذه الحضارة هناك ؟ وعلى أى شىء

تأسست وعلا بناؤها ؟ ولماذا هى محتكرة لأبنائها أو تكاد ؟ ماسر تفوق هؤلاء وتراجعنا ؟ .. أين يكمن الفضل فيهم ، وأين يكمن فينا العيب ؟ .. هل نستطيع أن نلاحق هذه الحضارة .. ثم نماشيها ، وكيف ؟!

كان همه ، وقد فعل ، أن يرى الناس .. أن يرصد ويراقب ويفهم الآدمى .. أن لا تأخذه ـ بعيدًا عن الناس ـ معالم الحضارة الغربية المتمثلة فى علمائها العاكفين على أبحاثهم ، أو أساتذة الجامعات المتعبدين فى محاريب العلم ، ولا صورة المعامل والمصانع الشاهقة المتعالية ، ولا المتاحف والمعارض والمكتبات وطوفان ما تقذف به المطابع من مصنفات غطت كل جوانب المعرفة حتى أذيال فروع الفروع ـ لا يأخذه ذلك ولا تأخذه ـ بعيدًا عن الناس ـ العمائر المتطاولة فى الفن والبنيان ، ولا الصواريخ العملاقة ، ولا الطائرات التى تجاوز أضعاف سرعة الصوت ... إلخ .. ما يعنى يحيى حقى هو كيف كانت هذه الحضارة بالناس ؟ .. وكيف تنعكس آثارها على الناس .. عامة الناس ، وعلى مسلكهم فى الحياة .. على تصرفاتهم فى البيت والمكتب والطريق .

عين هذا العاشق لمصر لا تغادر هنا وهى تراقب وترصد وتحلل هناك .. وقفت معه ، مثلما وقفت مع نفسى ، إزاء ظواهر هنا وهناك لا ينبغى أن نمر عليها مرور الكرام .. لا تفارقنى بتاتًا مشاهداتى لعجائز جنيف ولوزان فى سويسرا ، نساءً ورجالًا ، وهم يحرصون رغم السن والبرد ، على أن يبيموا فى موسم الزمهرير والثلوج ، شطر البحيرة الشهيرة ، ليقذفوا إلى البط والبجع والطيور التى تملأ صفحة الماء ، ما جمعوه من قطع الخبز وغيرها . لم يكلفهم أحد ، ولم يستحثهم أحد ، وإنما أخرجهم إحساسهم بالانتماء إلى بلدهم ..

حرصهم على جماله ، ورونقه ، وعلى حياة الأحياء الذين تتجمل وتزدهى بهم البيئة . يدركون أنهم إن لم يلاحقوا هذه الطيور فى هذا الموسم القاحل الذى أجدبت وسقطت أغصان ووريقات أشجاره ، بما تقتات الطيور به ، فإنها سوف تموت ، وأن موت الطيور هو موت لجانب مشرق وجميل للبيئة والحياة فى «الوطن» الذى يملأ صفحة وعيهم ووجدانهم ومشاعرهم .

*****

## من تراب الطريق (٤٦١)

# مصر التي في خاطري(*) (٢)

من يتذكر ـ من جيلنا ـ كيف كانت الأفران فى مصر بين يدى البلقانى ـ يونانى أو يوغوسلافى ـ الذى نزح إلى مصر وأحبها وعاش واندمج بين الناس فيها . كنا نرى صاحب المخبز ، فيما التقطته أيضا عدسة يحيى حقى ، فى معطف أبيض كأنه طبيب مقبل على جراحة .. أدواته كلها معقمة .. الصاج المرصوص عليه بانتظام أرغفة العيش المغطاة بشاش شفاف أبيض كالفل ، والكعك داخل عيون صناديق من وراء ألواح زجاج لامع لا غبار فيه أو عليه .. لا تشترى شيئًا إلاّ ويلفه لك الخباز فى ورق أبيض رقيق (لا فى مخلّفات الجرائد الناضحة بالأحبار!) ، لا تسمع فى المكان ضجةً ولا لغطًا ولا راديو مفتوحا على الآخر . من يتذكر هذا سوف يهوله كيف تبدلت حال هذه الأفران ، مثلما تبدلت أحوال محلات ومطاعم عديدة فى القاهرة والإسكندرية ومدن ـ بل وقرى مصر ـ حين انتقلت إلى أيدينا ، فانقلبت الأحوال .. وسبحان الله ، مع أن البلد بلدنا ، والخير خيرنا ، فإذا بالمعطف الأبيض يتحول إلى جلباب قذر ، وبالأرغفة تلقى هنا وهناك بغير انتظام تحط عليها أسراب الذباب ، والصناديق المخصصة للكعك والحلويات مكسرة الزجاج مغبرة بالتراب . من لا يصدقنى عليه أن ينتقل إلى أى محل يختار من محلاتنا الكبرى فى وسط المدينة بالقاهرة أو بالإسكندرية ، ليرى كيف أن الجمال قد تحول بين أيدينا إلى قبح ودمامة ؟!!

---

(*) المال ٢٢/٦/٢٠١٠ .

لماذا فقدنا إحساسنا بالدومين أو الملك العام ؟ لماذا سودنا صفحة النيل ، واستخدمناه مزبلة للصرف وتلقى جيف الحيوانات النافقة ، ومرتعا لقضاء الحاجة ؟!.. لماذا انتهاك حرمة الشوارع والطرقات بالإشغالات وخرق أى نظام ؟!. لماذا يستخدم الفرد منا أى مرفق أو خدمة عامة وكأنه آخر من يستعملها ؟!

لماذا تحول الدخول إلى المراحيض العامة إلى رحلة مخيفة من المعاناة يستحيل على الداخل فيها أن يخرج سليما مما يتعثر فيه من سوء استخدام وتبلد وقلة عناية من سبقوه ؟!.. لماذا يتحين كل منا أى فرصة تواتيه لاغتيال الرقعة الزراعية واصطناع الحيل لإخفاء الجرم دون أن ندرك أن هذا الاغتيال «الشخصى» يتحول بالتراكم إلى اغتيال عام وتدمير وانتقاص لأسباب الحياة .. حياتنا ؟! ودون أن نلتفت إلى أن حالنا صار كحال القطة التى تأكل بنيها ..

لماذا لم يعد يعنى الناس فى بلادنا أن الانفتاح العمرانى إلى خارج وادى النهر إلى الصحراء هو الأمان الحقيقى لى ولك ولنا جميعا حتى لا نمسى فنجد الرقعة الزراعية قد تآكلت ولم يعد فى مكنة مصر المحروسة أن تمد بنيها ـ من باطن أرضها ـ بما يقتاتون به ؟!

لماذا نبدد ونتلف ممتلكاتنا العامة فى الحدائق والطرقات ووسائل المواصلات دون أن ندرك أنها ملك كل واحد منا ؟! وأن الخسارة فيها خسارة لكل واحد منا ؟! ..

لماذا استسلمنا للقبح ، ولم نعد نلتفت إليه ، بل صرنا نفرزه ونتذوقه ؟! .. لماذا لم نعد نحس بأن ما هو خارج باب سكننا هو أيضا لنا ؟! لماذا صارت حدود المسكن هى آخر حدود الوطن لآحاد الناس ؟!!

لماذا لا نحس بأن نظافة طرقاتنا ومرافقنا مردودة إلينا منعكسة على عيوننا وأحاسيسنا وأذواقنا ؟! .. لماذا صارت عادة من عاداتنا أن نلقى بمخلفاتنا فى أى مكان يصادفنا ، حتى يئست الدولة نفسها وعادت فى بعض الأماكن - بل بوسط العاصمة - إلى رفع ما كانت قد وضعته أو بنته من أوعية ثابتة لتلقى المخلفات ؟!

لماذا فارقنا الالتزام بالنظام ، ونتحين الفرص لمخالفته ، ولا نبالى .. لا نلتزم إلاّ بالخوف ، وخشية الجزاء ؟! لماذا لا ندرك أن إشارات وعلامات المرور هى تنظيم ضرورى ينعكس على عموم الناس بما يجب معه أن يحترمه أفراد الناس دون حاجة إلى شرطى يخيفهم بالمخالفات ؟! لماذا صار سلوك الآدمى هو أزمتنا الحقيقية فى كل عمل وكل صرح وكل مشروع ؟!

لماذا أكوام «الزبالة» تملأ نواصى شوارعنا وطرقاتنا وتتزايد ، لا نحن نقلع عن مدها بالمزيد ، ولا الكناس أو جامع القمامة يعنى بإزالتها ، فإن فعل كل حين رفع بعضها على مضض وترك الباقى دون أى إحساس بهذا القبح ؟!

لماذا لا نحس بأن الجيف - وغيرها ! - التى نلقيها فى نيلنا مردودة إلى أجوافنا ؟! لماذا لا تفلح - بل نتلف - أى خدمة عامة تخصص للناس ؟! .. لماذا لا نحس بأن عوادم السحابة السوداء مردودة فى النهاية إلينا ؟ .. إلى رئاتنا ؟!

لماذا انغلق المصرى على نفسه وتمحور فى ذاته وأعطى ظهره للآخرين ولكل ما هو عام ؟! .. لماذا فقدنا الإحساس بالانتماء الذى جعل منظورنا ضيقًا ضامرًا بل ضريرًا ، لا يرى أن مصر هى وطننا وأمننا وأرضنا ومعاشنا وحاضرنا ومستقبلنا ؟!

إن التعديات على أى رقعة فيها هى تعديات على كل واحد منا ...

يبدو لى أن انسلاخ المصرى وانسلاته من الإحساس بالانتماء ، قد صار داءً مزمنًا يفسر لنا كثيرا من الأمراض والأسقام التى باتت تشوه صفحة حياتنا .. أخطر ما بتنا نعانى منه لفقدان الانتماء ، أن العنصر الآدمى والخامة البشرية صارا المشكلة الحقيقية التى تهدد كل ما نبنيه أو نسعى لبنائه ..العنصر البشرى بات هو العبء الحقيقى فى أى عمل أو مشروع بعد أن كان عنصر العطاء والإبداع ؟!!

*****

## من تراب الطريق (٤٦٢)

# مصر التي في خاطري(*) (٣)

ضمور الإحساس بالانتماء، هو السبب الجذرى فى كثير من أمراضنا.. وهو السبب فى خفوت وخبو الحامة البشرية وما يعتريها أحيانا من اللا مسئولية أو اللا عناية أو الاستهتار والبلادة والتكاسل وانعدام أو نقص الضمير. الإحساس بالانتماء للوطن هو الأكسير والمحرك والقوة الدافقة للولاء للوطن ولناسه، وللإحساس بهمومه، وقضاياه العامة، والالتحام فيه بحيث تغدو آمال الوطن وطموحاته وأهدافه وغاياته، هى هى آمال الفرد وطموحاته وأهدافه وغاياته.

لو كان هذا هو إحساس الموظف أو المستخدم العام أو المكلف بخدمة عامة، لأدرك أنه وضع بمكانه ليكون فى خدمة الناس لا فوق الناس؟!.. لعرف أنه حماقة وضعف داخلى أن يفهم الخدمة على أنها محض سلطة تتبلور عنده لتكون «شوكة» لا يحس لذاته قيمة إلا بوطء الناس بشوكة هذه السلطة التى لا يتصور لنفسه قيمة بدونها، وقد تمضى بصاحب الموقع سنوات ربما طالت قبل أن ينضج ويحصّل من أسباب المكانة الموضوعية ما يجعله ينتبه إلى أن قيمته فيه.. فى علمه وثقافته وخلقه ونباهته وفطنته وتقديره، ولاستغنى بهذه المعانى وبهذا الفهم عن الاهتمام المريض بأوهام السلطة واستعراض الشوكة، ولأدرك أن انتماءه العميق الواعى للوطن، هو بوصلته الحقيقية التى تضمن له سلامة وصفاء وسداد الرؤية، وثراء وإيجابية العطاء.

(*) المال ٢٣/ ٦/ ٢٠١٠.

إلام يرجع هذا الضمور فى الإحساس بالانتماء العام ؟؟ .. هل لخفوت الالتفات إلى حب الوطن ؟! .. حب الوطن لا يخفت ، ولكن قد يخفت الشعور به أوالالتفات إليه ؟! .. ذلك لا يحدث فى لحظة من زمان ، ولاينحصر ومحال أن ينحصر فى سبب واحد ..هذا الخفوت هو حصاد تراكمات متنوعة وعلى مدار زمن !!.

كنا نعزو إلى الاحتلال الإنجليزى ، ومن قبله الفرنسى ، الموقف النفسى المعادى الذى قد يفرز فى اللا وعى خفوت الإحساس بالانتماء ، ويخلط لدى العامة الملك الوطنى العام بأداة وجهة ووجه الحكم والاحتلال الأجنبى البغيض . قد يكون للبسطاء والعامة العذر فى هذا الخلط اللا واعى ، بل لقد قادت هذه المشاعر المختلطة إلى نسف وتدمير الممتلكات المصرية من محطات ومرافق وسكك حديدية ... إلخ فى ثورة ١٩١٩ .. وجدت أعمال هذا التدمير مبررها فى أنها بصورة أو بأخرى إعاقة للمستعمر المحتل ، تُطلب لذاتها حتى وإن دفعت الثمن من أموالنا ودومينا العام الذى ندمره أو نتلفه ، ولكن ما بالنا وقد تزامن رحيل المستعمر الأجنبى مع تمصير الاقتصاد الوطنى منذ منتصف القرن الماضى ، لا نزال نقع فى هذا الخلط ، ونبقى فى وهدة هذا الإحساس الضامر الضرير بوهن الانتماء .. بل لماذا استسلم المصرى لهذا الضمور ولم يقاومه ؟!!

قد يفلسف اللا وعى ، الضمور الحالى للإحساس بالانتماء بأسباب ومبررات وتعلات ، وقد يكون بعضها أو معظمها صحيحًا ، بيد أن هذه الأسباب أيا كان مقدار نصيبها من الصحة لا تجيز أن ينحل الضيق بها أو منها إلى تفكك وخفوت شعلة الانتماء للوطن فى الوجدان المصرى ... بل

لعل الأقرب إلى تداعيات النفس أن يكون ذلك شاحذًا إلى تعميق الانتماء لتجاوز السلبيات التى منها نعانى .

ليس هذا كلاما فى السياسة ، فلم تشغلنى السياسة ومآربها قط ، وإنما هو انشغال بالوطن وبمصر التى فى خاطرى وفى خاطرك ، وغوص إلى الأعماق فى التعرف على همومها ومتاعبها .. أيامنا كنا ندْرس التربية الوطنية لا الحزبية ولا السياسية ولا الطائفية ولا الفئوية .. التربية المعنية بالوطن وحب الوطن وقضايا الـوطن لا سواه .. لم نكن ندخل إلى الفصول الدراسية إلاّ بعد أن نصطف فى طابور الصباح ونحيى العلم فى جلال واحترام ونهتف من القلب «تحيا مصر» .. لقد دهمتنا أشياء وملمات واختناقات كثيرة لفتتنا عن هذا الجانب «المعنوى» الضرورى الهام فى تربية وبناء الشخصية.. عن إنبات وغلغلة وتعميق حب الوطن وصدق وفاعلية الانتماء له فى صفحة وعينا !!

انسلات المصرى وتمحوره وانكفاؤه على ذاته ، وتنامى ظاهرة الأغلبية الصامتة ، مرض حقيقى يحتاج إلى تشخيص جاد وإلى دواء أكثر جدية وصدقا والتزاما .. لا عذر لنا فى ضمور انتمائنا ، ولا عذر لنا فى القعود أو التكاسل أو الالتفات عن استقصاء أسباب الخلل ، ولا فى القعود أو التكاسل عن تجميل حياتنا .. هذا لا يحتاج إلى إنفاق ولا أموال ولا ميزانيات ، وإنما يحتاج إلى الجد الـذى كان ، ويحتاج إلى عزم ونظام ، وإلى انتماء عمـيق يشعر به المصرى .. كل مصرى ، أنه بضعة من مصر ، همه أن يذوب ولاءً لها.. أن يكون الواحد للكل .. وأن يتحول إلى قوة فاعلة معطاءة لصناعة العمار والحياة والجمال فى ربوعها !

*****